البيان

العدد ٢٥٠ يناير - كانون الثاني ١٩٨٧م

□ أحمد السقاف
الشاعر المتوهج "٢"
د. محمد حسن عبدالله

□ الفن والحياة
د. سعد العبدالله الصوليات

□ بعض المدارس والاتجاهات الحديثة "في علم اللغة"
ترجمة د. زكي حسن التوني

الصورة الشعرية عند السياب

□ الكلاب تنبح القمر
- مسرحية -
د. عبدالغفار مكاوي

حوار مع الأديب يوسف المقيد

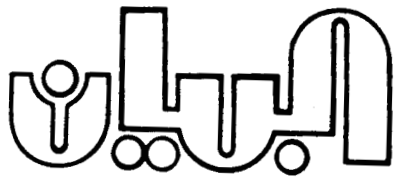

مجلة فكرية شهرية تصدرها رابطة الأدباء في الكويت

العدد ٢٥٠ يناير - كانون الثاني ١٩٨٧م جمادى الاولى ١٤٠٧هـ

رئيس التحرير :
د. سليمان الشطي

سكرتير التحرير :
سليمان الخليفي

المراسلات
رئيس تحرير مجلة البيان
ص ب ٣٤٠٤٣ العديلية - الكويت
الرمز البريدي 73251

هاتف المجلة ٢٥١٨٢٨٦
هاتف الرابطة ٢٥١٨٢٨٢

مقالات وبحوث

- أحمد السقاف
  الشاعر المتوهي

- الصورة الشعرية عند
  السياب

- الفن والحياة

- بعض المدارس والاتجاهات الحديثة
  "في علم اللغة"

الفن والحياة

د. سعد العبدالله الصويان

الأكاديميات لم توجد الفن ولكنها حاولت تقنينه بعدما اكتشفته في مظاهر الطبيعة ونشاطات الانسان. منذ خلق الله الانسان طبعه على حب الجمال وميّزه بذلك عن الحيوان. يخطيء من يعتقد أن الانسان العصري يتميز عن أسلافه بحسه الفني وذوقه الرفيع. الانسان الفطري فنان يعيش الفن ويمارسه في جميع شؤون حياته: لغته جميلة موقعة، حركاته رشيقة، قسمات وجهه معبرة، عيناه لهما بريق، يحب الألوان الزاهية والأشكال الهندسية، ولا يؤدي عملا من الأعمال إلا بمصاحبة الغناء، يرقص لأدنى سبب، ويقول الشعر في كل مناسبة.

نعم تختلف الجماعات التقليدية عن المجتمعات المتحضرة في أنها في الأغلب الأعم لا تعرف مبدأ الفن للفن، أو ما يسمى الفن الخالص. لا يمكننا أن نتصور تماثيل منصوبة في أسواق القرية، لا تحف ولا لوحات معلقة في الأكواخ وبيوت الطين. القصيدة المنثورة مفهوم لا يرد بتاتا على ذهن الرجل الأمي. هذه من مظاهر المجتمعات

المتحضرة التي تنظر إلى الفن كنشاط متخصص قائم بذاته. هذا الرجل المتحضر يفتض حضارات الشعوب البدائية باسم الفن. الأصنام التي كان يعبدها الرجل البدائي وصور القديسين التي يتوسل بها أهل الريف تحولت إلى تماثيل تزين بها ساحات المدينة. التمائم والأحجار الكريمة التي استخدمها الأقدمون لدرء العين والحسد والأرواح الشريرة أصبحت مجرد حلي تزدان بها معاصم الغانيات.

أشياء الرجل البدائي المسكين التي تعب في صنعها واستخدمها في تسيير شؤون حياته يجمعها هذا الرجل المتحضر ويضعها في صناديق زجاجية ليحدق بها ويتفكه بالنظر إليها. ما نشاهده من مسرحيات وغناء ورقص كان عند الاغريق والأمم التي سبقتهم مرتبطا بالطقوس والشعائر الدينية، لو بعث الانسان البدائي ورأى كيف تبتذل أشياؤه وتمتهن مقدساته في المتاحف والمسارح لاستصرخ الآلهة ودعا بالويل والثبور.

الفن عند الجماعات التقليدية مهما كانت طبيعته، مرئيا أو مسموعا أو حركيا، يرتبط ارتباطا مباشرا بالحياة وله وظيفة ملموسة ودور بارز في المجتمع. أي نشاط انساني أو مظهر من مظاهر الحياة التقليدية هو عمل يقصد به سد حاجة معينة بطريقة فنية تتناسب مع الذوق العام. لو كان الكساء مثلا يقصد به مجرد ستر العورة ووقاية الجسم من الحر والقر لما تفننت الشعوب في تصميم الأزياء ولما اختلف اللبوس حسب اختلاف الحالة والمناسبة. في مجتمعات الصيد والرعي نجد الانسان حالما يحط رحاله ويلجأ إلى ظل كهف أو شجرة ليجعل منه سكنا مؤقتا يبادر قبل كل شيء الى تهيئة المكان وترتيبه بشكل يتناسب مع ذوقه الفطري وحسه الجمالي. وما أشد حرص الانسان بعد أن يستقر على تشييد القصور الفخمة التي تزينها العقود والأقواس والشرفات والطلاء وغيرها من الديكورات التي لا داعي لها لو كان الغرض منها نفعيا بحتا. هل للنقوش التي نضعها على الأبواب والمصاريع والنوافذ أي دخل في صد الريح ودفع الخطر الخارجي ومنع الناس من ولوج الدار؟ انه الحس الفني الذي جبل عليه الانسان، غريزة وهبها الله له مثل اللغة، وهي لا تقل عن اللغة في دلالاتها النفسية وإيحاءتها الرمزية. الفن هو استنباط النظام والتوازن اللذين يسيران الكون والطبيعة ثم اسقاطهما على ابداعات الانسان الفكرية ومنتجاته المادية.

ولو أجلنا النظر في بيئتنا المحلية لوجدنا الحس الفني ماثلا في كل صغيرة وكبيرة من حياتنا التقليدية، وذلك بعكس ما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة حين ينصرف الحديث إلى حياة صحراوية تسودها روح البداوة. نحن هنا لا نتحدث فقط عن الشعر والغناء والرقص بل أيضا عن مظاهر الفن الشاخصة المرئية كما تتمثل في الصناعات الأدوات التقليدية.

لا شك أن هنالك الكثير من أدواتنا المحلية التي تخلو من أي مسحة جمالية وغايتها نفعية بحتة، خصوصا تلك التي تستعمل في الفلاحة مثل «الفاروع» «المسحاة»، «المدمثة»، «المنثر»، «الوثارة»، «المراحل»، «الوقر»، «المحفر» وغيرها، ربما لأن هذه الأدوات ليست للاستخدام البشري وإنما للأعمال العنيفة القذرة التي تتعلق بالتربة والطين والسماد وما الى ذلك. أما الأشياء التي يستخدمها الانسان مباشرة في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وتنقلاته وغير ذلك من منافعه الخاصة فإنها قلما تخلو من اللمسات الفنية. بل إن اليد البشرية قلما تلامس شيئا دون أن تضفي عليه مسحة من الجمال والسحر وتنفخ فيه من روح الانسان.

انظر إلى أبسط الأشياء مثل «البيز» المزركش الذي يستخدمونه لوقاية اليد ضد حرارة الدلة أو الأبريق، ألا يمكن أن تفي بهذا الغرض أي قطعة من الخيش أو القماش البالي؟! قل نفس الشيء عن «المبرد» الذي كانوا يستخدمونه لتبريد القهوة بعد تحميصها وعن «المهفة» التي كانت تستخدم للترويح عن الجسم أيام الحر. أنظر الى دقة النقوش والحذق في صناعة «الدلة» و «المبخرة» والزخارف الجصية التي يزينون بها مجالسهم! ألم تتعجب من عناية الأقدمين وتفننهم في زخرفة سرج الحصان واللجام و «شداد» المطية و «الهودج» و «الساحة» التي كانوا يجسلون عليها؟! ولا تنس «الميركة» و «السفايف» و «الخرج» وغير ذلك من الأشياء الجميلة التي اعتاد البدوي أن يزين بها راحلته والتي تغنى في وصفها شعراء البادية قديما وحديثا ويسمونها «دشن» أو «دل».

عـلون بـأنمـاط عـتـاق وكـلة
وراد حـواشـيـهـا مـشـاكـهـة الـدم

ووركن في السوبان يعلون متنه
عليهن «دَلُّ» الناعم المتنعم
وفيهن ملهى للصديق ومنظر
أنيق لعين الناظر المتوسم
كأن فُتات العهن في كل منزل
نزلن به حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّم

وفي قوة الملاحظة ودقة الوصف والمجازات التي يستخدمها العربي لتجسيد مظاهر الطبيعة أقوى شاهد على شفافيته وحسه الفني. فكثيب الرمل ردف الحبيبة والليل شعرها والبرق ثغرها والماء عينها. ويحب العربي الألوان الزاهية مثل الابل الوضحاء والحمراء والشقحاء ويستأنس بالأسواق الموسمية لما فيها من تنوع وتلوين حيث يفد إليها الناس من مختلف الجهات والقبائل على اختلاف ازيائهم ولهجاتهم.

السوق يعجبني إلى شفت طوله
مثل النظيم المختلف عن مثيله
ذولا لهم حاجة وذولا بدوله
يلهون راع الوارده عن قبيله

ترى هل سينتبه الرسامون والنحاتون والفنانون التشكيليون عندنا إلى هذه المعطيات؟ كثيرا ما نسمعهم يتحدثون عن استلهام البيئة المحلية هؤلاء الذين يمضون سنوات الغربة الطويلة الكئيبة، ترى هل جلسوا بعد عودتهم ولو لساعة واحدة إلى صائغ أو صانع أو نجار ليتحدثوا معه عن سر هذا الحرفة وأصول هذه الفن الذي ورثه من فجر التاريخ؟ ترى هل لبسوا ثيابا داكنة وذهبوا إلى البادية والقرية للتعرف على مختلف أنماط الفن المحلي؟!

ليس الاستلهام أن يضع الفنان أمامه شيئا محليا ويرسمه. لابد أن يعرف دقائق هذا الشيء وطريقة صنعه وشعور الصانع أثناء عملية الصنع، ولابد أن يعرف شعور الناس تجاه هذا الشيء وتقويمهم له، وأن يستوعب الذوق العام والحس الفني للجماعة

ووظيفة الفن النفسية والعاطفية بالنسبة لهم. إذا استبطن الفنان هذه الأمور وتمثلها تمثلا صحيحا استطاع أن ينتج فنا ينبض بالحياة ويعبر عن وجدان الجماعة.

قلنا أن الشعوب والجماعات التقليدية لا تعرف مبدأ الفن للفن أو ما يسمى الفن الخالص، حيث أن الفن عندها لا ينفصل عن شؤون الحياة الأخرى ونلمسه في كل حرفة من الحرف. العامل في أداء عمله والصانع في اتقان صناعته كل منهما فنان ينشد الجمال والكمال.

لذا نجد الفن عند الجماعات التقليدية فنا فطريا بسيطا يعبر عن روح الجماعة. أما في المجتمعات المتحضرة فانه ينشأ التخصص في الفن والتكسب من ورائه ويصبح مجالا معقدا فيه تشعب وتنوع. في البادية مثلا نجد معظم الفتيات يحسن الغزل والنطي والنسيج، ومعظم القرويات يحسن نسج الخوصيات وفن التطريز. ومعظم الرجال في هذه المجتمعات يجيدون الرقص والغناء التقليدي الذي تصحبه آلات بسيطة مثل الطبل أو بدون آلات في معظم الحالات.

والفنون الغنائية والحركية في المجتمعات التقليدية مرتبطة بدورة الحياة، دورة حياة الفرد وما يمر به من أطوار أثناء سني عمره ودورة حياة المجتمع خلال عبوره من موسم لآخر على مدار السنة. (ونظرا لارتباط الرقص في المجتمعات التقليدية وتمازجه مع اللعب والعمل استخدمنا مصطلح «الفنون الحركية» الذي يشتمل على هذه النشاطات الثلاثة، ويؤكد على صلتها ببعضها.) الايقاع والتناغم حقيقة كونية تتجسد في حركة الأجرام السماوية وتعاقب الفصول ودقات القلب. الايقاع يتشكل في اللاوعي الانساني لحظة الولادة مع تقلصات الرحم المنتظمة ويلازم الانسان من المهد إلى اللحد.

ارتباط الغناء والرقص بالعرس معروف. وحينما تلد المرأة فإنها تغني لطفلها في الأشهر الأولى وهي ترقصه لتشد بنيته أو وهي تهدهده لينام. وبعدما يكبر قليلا تغني له وهي تدربه على المشي. والكثير من المهارات الذهنية والعضلية والقيم الاجتماعية

يتعلمها الطفل أثناء فترة التنشئة خلال السنوات الأولى من عمره عن طريق الاهازيج التي يتلقنها من أبويه. ثم تبدأ فترة اللعب مع الانداد. اللعب نشاط اجتماعي ضروري لتنشئة الطفل في تعويده على التعامل مع الآخرين وتهيئته لشغل المراكز الاجتماعية وأداء الأدوار والمهام المختلفة التي تناط بعاتقه حينما يصبح انسانا بالغا مكلفا. واللعب نشاط عضلي وذهني فيه استراتيجية وتخطيط وفيه تمازج بين الحركة والايقاع والنغم. ألا تذكرون مثلا حينما كانت الفتيات الصغيرات يسرّحن شعورهن ويلبسن الخلاخيل والبرابيش وتضع الواحدة يدها على كتف الأخرى في صف منتظم وتجلجل البرابيش مع وقع الخطى الجميلة ويرددن بصوت واحد.

هـوهـا يـا هـوهـا
والـكـعـبـة بـنـوهـا
ميّـة زمـزم شـربـوهـا
سـيـدي سـافـر مـكـه
جـاب لي زنبيـل كـعكـه

أو..

جـن الـنـغـم صـف صـف
مـعـهـن نـوره تـقـرع دف
قـال الـشـاوي حـبـيـبـي
قـالـت مـقـطوع لـك شـف

أما حينما نتحدث عن ارتباط الفنون الغنائية والحركية بدورة حياة المجتمع فإننا سوف نلاحظ اختلافا بين هذه الفنون يتمشى مع اختلاف البيئات والمواسم وما يعنيه ذلك من اختلاف في النشاطات والأعمال المصاحبة للرقص والغناء. فالغناء في البادية يختلف عنه في الحاضرة وفي البيئة الصحراوية يختلف عنه في البيئة البحرية.

من المعروف ان الأعمال غالبا ما تكون مصحوبة بأبيات يرتجلها العاملون

ويتغنون بها وفق ايقاع موسيقى يساعدهم على ضبط حركاتهم وتنظيم عملهم، بل يساعد حتى في تنظيم عملية التنفس وتبادل الأكسجين مع ثاني أكسيد الكربون في الجسم. هذا يعني توفير الجهد والطاقة وضبط الزمن. مثلا الغناء أثناء التجديف في البحر يساعد على تزامن حركة المجاديف. والغناء أثناء حرث الأرض يساعد على تزامن وقوع المساحي. والبناءون الذين يناولون بعضهم الطوب عن بعد يساعدهم الغناء على ضبط التوقيت وقوة الدفع بحيث لا تقصر الطوبة عن غايتها ولا تتعداها فيختل العمل أو يحدث مالا تحمد عقباه. لذا وجد الغناء مع الانسان منذ أن درج على وجه المعمورة ولازمه في جميع شؤونه، حتى في الممات تنوح عليه النائحات.

يغني الفلاح وهو يحرث الأرض ويحصد الزرع ويدرسه ويذروه. البعض منا لا يزال يذكر الأغاني الجميلة التي تردد أثناء «السواني» و «كمام النخل» و «الختام» و «الحصاد» و «الدياس».

وفي البادية «يحدون» على الخيل و «يهيجنون» على الهجن ويهزجون الاهازيج وهم يمتحون الماء من الآبار لسقي الابل. وقد اعتاد أهل الجزيرة العربية حينما تلدغ الحية شخصا أن يتجمعوا عند رأسه ويغنوا طوال الليل لاعتقادهم أن الملدوغ ينبغي أن يبقى صاحيا يقظا حتى لا يسري السم في جسده ولا يدعونه ينام حتى تنام الحية التي لدغته والتي يقولون انها لا تنام إلا مع بزوغ نجمة الصبح. والحديث عن فائدة الغناء في التطبب والعلاج يذكرنا بالزار والتوسل بالغناء لطرد الأرواح الشريرة وجلب الأرواح الخيرة. هذه ترسبات وثنية ظلت مع الانسان ورثها من العصور السحيقة والأمم الغابرة.

يعتقد البعض أن البحر حاجز طبيعي يفصل الأمم والشعوب عن بعضها البعض بينما هو في الحقيقة أيسر سبل الاتصال وأسهل طرق السفر. والبيئات البحرية بطبيعتها مزيج من الأجناس والحضارات وهي محطات توريد وتصدير حضاري وبشري. لذا فهي غنية بالفنون. ومن ينظر إلى منطقة الخليج في شرق الجزيرة العربية ومنطقة البحر الأحمر في غربها يلاحظ ثروة هائلة من الأنغام والايقاعات والرقصات

بعضها جاء من الهند وبعضها من أفريقيا، ومعظمها توارثته الأجيال من جاهلية العرب الأولى مرورا بمختلف عصور الحضارة العربية الاسلامية المتعاقبة. وغالبية هذه الفنون يتغنى بها الصيادون والغواصون والمسافرون في عرض البحر.

والفنون التقليدية بطبيعتها جماعية في أدائها وفي سياقها ومناسباتها، تعبر عن تكاتف الجماعة وترمز إلى وحدة المصير، يتلاشى فيها الفرق بين المؤدين وبين الجمهور ولا فرق فيها بين المسرح والقاعة: المؤدون هم الشعب والمسرح هو الوطن.

ولارتباط الفنون التقليدية بالحياة فإن تغير الحياة يعني اندثار هذه الفنون وتلاشيها. في الخليج يندبون نهاميهم الذين ماتوا وانقرض معهم فنهم. في وسط الجزيرة تلاشت حياة البادية وتلاشى فنها. عازف الربابة الأصيل يكاد يكون معدوما، انغام وايقاعات وحناجر وطبقات صوتية غابت عن الأسماع. لابد أن نحاول الامساك ببعض خيوط الماضي قبل أن تذروها رياح التغيير. وما يروج الآن في الأسواق من أشرطة تحت مسمى الفن الشعبي ليست من الفن الشعبي في شيء. ما أسخف السامري حينما تكون المرددات مصريات والجوقة لبنانية بصحبة الأرغون والقيثار الكهربائي! لا نريد فقط أغاني شعبية بل نريد مسرحيات وابوريتات استعراضية غنائية راقصة تنقلنا إلى أجواء الماضي وتبرز لنا علاقة الفن بالحياة ونشاطات الانسان. نريد مسرحة الماضي وعرض فنونه بأسلوب ذكي فيه خيال مبدع وتصوير جميل. ولنا في تجربة فيروز والأخوين رحباني قدوة طيبة ومثال يحتذى.